اندهاشات المسلمين المعاصرين

تحديات العقلنة وغواية المكننة

خليل أحمد خليل[*]

تسعى هذه المقالة للبروفسور الدكتور خليل أحمد خليل إلى الإضاءة على أصلٍ تأسيسي من أصول الاستغراب المذموم الذي وقعت به شرائح واسعة من نخب العالمين العربي والإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، يعرض الكاتب إلى ظاهرة الدهشة التي عصفت بالعقل المسلم وهو يتلقى حداثة الغرب بجناحيها العقلي والتكنولوجي، ثم ليبين الأسباب التي أفضت إلى ذلك، والنتائج المعرفية والسوسيولوجية المترتبة عليها.

«المحرر»

وصف هيغل الإسلام بأنه «ثورة الشرق».[1] وفي أيامنا الحاضرة وصف تييري كوفيل ثورة 1979 المسلمة في إيران بأنها «ثورة خفيّة»[2] بمعنى أنها ستكون ذات تأثيرات زلزالية في إيران ومحيطها أشدَّ وأعمق مما كان للثورة الفرنسية (1789) في أوروبا وعالمها. ومن المفيد التشديد تكراراً على أن الإسلام القرآني، عقلٌ أرفع يدعو إلى إعمال العقل في كل أمر، فهو كلام الله الرابط بالوحي الهابط بين القدسي والمقدّس، والرابط بالعلم الصاعد بين المقدس النبوي والمعصوم (المأموم) وبين الناس كافة. لكنه ليس، كما يُخال، كتاباً علميّاً متخصصاً، تفتح آياتُه بـ «سحْرٍ مستمر» كلَّ الأسماء (العلوم، في تأويلنا): وإن كان ينوي على «سِحْرٍ»، فهذا يُقال على معنى الاختراع، الابتكار والإدهاش المعرفي؛ لا على

---

*ـ عالم اجتماع، وأستاذ سابق في الجامعة اللبنانية.

1ـ G.W.F. HEGEl، Leçons sur l’histoire de la philosophie، tr.fr، Paris، 1970 .
محاضرات في تاريخ الفلسفة، تعريبنا؛ بيروت، مجد، 1986

2ـ Thiery Coville، Iran، la Révolution invisible، Paris، la Découverte، 2007 .
إيران، الثورة الخفية، تعريبنا؛ بيروت، دار الفارابي، 2008.

معنى الشعوذة و«النفْث في العُقَد» المنقود في القرآن ذاته ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾[1].

في عصرنا تبّنى عبد الله العلايلي (1914ـ1996): «**توسيع هوية الإنسان وتضييق هوة الأديان**»[2] بنقد الخطإ بالعقل العلمي: «ليس محافظةً التقليدُ مع الخطإ؛ وليس خروجاً التصحيحُ الذي يُحقق المعرفة». لقد أدرك باكراً «ما وراء هذا التنوع (في الإسلام) من القوة التوحيدية الناظمة لمعنى الأنسنة وقيم الإنسانية[...]: «الطائفية مولود غير شرعي من انزواج [زواج داخلي: Endogamie] طوطمي بين التعصب الديني والتصلّب الفقهي والتخشب الرؤيوي». وباسترجاع العرفاني الشهير نجم الدين كبرى (1145ـ1221م) القائل «الطرائق بعدد أنفاس الخلائق»، يعلن العلايلي أن الإسلام دين الإدهاش، أي دين الكشف أو الاكتشاف العلمي لكونه دين الفطرة والفكرة، وليس دين الدوغماتية (الوثوقية) والأيديولوجية (الفكروية) المأزومة.

نشأ جيلنا وتكوّن علميّاً على ثقافة القرآن؛ وحين هاجرت إلى فرنسا (1962ـ1968) في غُربة علمية أو استفهامية، استغربتُ، بداهةً، اهتمامَ الجامعات هناك بما أسموه «علم الإسلام» (Islamologie) الذي لا مثيل له حتى الآن في مدارسنا ومعاهدنا وحتى في جامعاتنا. وبعد الاستغراب جاءني إيحاء المستشرق روجيه آرنالدز (له: ابن حزم الأندلسي، وثلاثة رُسُل لإله واحد، معرب، بيروت) بدرس «التعليم الديني في لبنان»، فاعتنيت شخصيّاً بوجهه الإسلامي (واعتنى سواي بالوجه النصراني). في افتتاح أطروحتي (التعليم الديني الإسلامي في لبنان، دوره التربوي والاجتماعي والسياسي) وهي مخطوطة (صُور)، استشهدت بحديث نبوي «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء» وتساءلت من حينه حتى اليوم عما إذا كان العلماء الصراطيّون هم غرباء الإسلام؟ وسألتني ابنتي البكر، لينا: «من هُم الشيعةُ يا أبي»؟ وما انفك السؤال على محك العقل. خلصت إلى أن التعليم الديني الإسلامي، بالمعنى الدقيق، لا يشكل أكثر من 5% من تعليمنا الحديث، ولاحظتُ من تجارب المتدّينين أن «العبادات» لا تستغرق أكثر

---

[1]ـ القرآن، 4/113. النفاثات هنا تُقال على النافخات الساحرات؛ وهي معاكسة لمفهوم النّفخ الروحي (91/21؛ 9/32؛ 29/15؛ 72/38) الذي يدل على الخلق الإلهي البديع. للمزيد، را. خليل أحمد خليل، معجم دلالات القرآن الكريم(عربي/فرنسي/انكليزي)، مخطوط، 1998.

[2]ـ عبد الرحمن الحلو، عبد الله العلايلي، العلامة الرؤيوي والإمام الحداثوي، بيروت، مركز بيروت للدراسات والتوثيق، 2014، صص 20ـ21. را. العلايلي: ا. سمو المعنى في سمو الذات أو أشعة من حياة الحسين؛ 2. تاريخ الحسين؛ 3. أيام الحسين (أعمال/ دار الجديد، بيروت 1994ـ1996).

مـن ذلـك الوقـت، بالمقارنـة مـع «المعامـلات»، فاكتشـفت مغـزى الحديـث «معاملـة الأبـدان خـير مـن معاملـة الأديـان» عـلى معـانٍ منهـا: إعـمالُ الصـدق في الإيمـان حتـى يصـحّ وصـف المسـلم بأنـه مؤمـن، طالمـا أن اللـه هـو المؤمِّـن (Le Garant)؛ وإعـمال العقـل أوالعلـم في استكشـاف العـالم المخلـوق (المـادة الحيّـة بطاقاتهـا) واسـتثماره، لتحويـل الطبيعـة إلى ثقافـة و/ أو حضـارة؛ وتاليـاً، لا بـدّ مـن توظيـف العلـم لتحصـين الإيمـان (وهـذا خـارج العقـل العمـلي، طالمـا أنـه ينـمُّ، عندنـا، عـن سـموّ الجسـد إلى معنـى الـروح، وعـن سـموّ «أمـر ربي» ـ الـروح ـ إلى جسـد حـيّ، مُصَـوَّر ومقـوَّم في «أحسـن تقويـم»)، وفي حصـن العقـل صـدى للـروح، ولكـن إن لم يُسـتعملْ فلسـوف يصـدأ... وقـد يتحـول التوحيـد، بـدون تجديـد أنواعـه، إلى توّحـد (وهـو مَـرَض عُصَـابي).

إلى ذلـك، ميّـزتُ خطـأَ إعـمال العقـل العلمـي (عنـد عتبـة 5%) الـذي يُصحَّـح بنقـد مـن العقـل العلمـي عينـه، وأن هـذا ـ إن لم يُصحَّـح مـن خـلال أطـوار التكويـن العلمـي ـ فإنـه آيـلٌ لا محالـة إلى خَلَـلٍ، ثـم إلى شرْخ في المـدار الحضـاري والأنظمـة السياسـية؛ ورأيـتُ أن الذنـب (أو الخطيئـة) بالمعنـى الإسـلامي لا يُصحَّـح إلا بوعـي روحـي، بإصلاح السـلوك، وخصوصـاً بالتوبة والمغفـرة والرحمـة. ثـم أدركـت خطـورة التخليـط العقـلي بـين التكويـن العلمـي للمسـلم وبـين تكوّنـه الإيمـاني، الناشـئ عـن إعـمال العلـم التقنـي في مجـال الإيمـان الدينـي، أو بالعكس،مـا يعنـي طغيـان آليـات (ميكانيزمـات) التكنولوجيات عـلى قيـم إيديولوجيـات الهُوية، وتاليـاً تضييق الهُويـة الإنسـانية، لصالـح مـا يُسـمَّى حاليـاً الإنسـان الكوانتـي (Homo Qunticus)، المجـزّإ فيزيائيّـاً بـلا ميتافيزيقـا روحيّـة، أو مـا يسـمى «القـرآن الصاعـد»، مـن الإنسـان إلى اللـه بالدعـاء والصـلاة والتأمـل الكشـفي (Extatique). وخلصـت إلى ان سِـحْر الآلات لا يرقـى إلى إدهـاش الإسـلام، الغريـب، هنـا، بمعنـى هجـرة المسـلمين المؤمنـين، المتعلمـين وغـير المتعلمـين، في فضـاء المعرفـة الإلهيـة. وتسـاءلتُ: هـل «الهُجـرة في اللـه» غُربـة؟

٢ـ الأطوارُ و «لقاءُ الله»

* المسـلم مهـدوف، بكليتّـه، عـن «قـوسِ السـماء» أي أن هدفـه الأخـير مـن هجرتـه أو رحلتـه العقليـة الروحيـة هـو «لقـاءُ اللـه»، رؤيتـه، معرفتـه، أي العـودة بالنفـس المطمئنـة إلى السـكينة الإلهيـة (روح القـدس، قرآنيّـاً؛ و«ذرّة اللـه» فيزيائيّـاً). لكنـه، عليـه أن يعمـلَ لدنيـاه كأنـه «اشـتغال أبـدي»، أي كعقـلٍ دائـم، يمُـارس التكنولوجيـا في مجـال، والأيديولوجيـا في

مجـال آخـر، بدعـوى أن التكنولوجيـا قمينـةٌ بحفـظ الأيديولوجيـا، وإنمـا بـلا عكـس (كـما يحـدثُ في فتـاوى مضـادة لعقـل القـرآن وعقلانيـة المسـلمين)[1].

يـؤشّر القـرآن عـلى عقـل التطـوُّر واتجاهاتـه بالمعـاني الاسـلامية: الأطـوار هـي حـالات مختلفـة (71)﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (4/Phases)؛ وهـي تحـولات متعاقبة/متراكبـة (Etapes، Transformations successivers).

* ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ الانشـقاق: ١٩ ـ الطبـق هنـا بمعنـى الحـال: مـن طبـق إلى طبـق، مـن حـال إلى حـال، أي أن الحيـاة تطـوُّر، تحـوُّل أو تغـيّر، وكلـما تغـيّرت الحـال، لا بـد مـن إعـمال العقـل لاستكشـاف المحـال[2]، وإلاّ أطبـق الجهـل عـلى نُـور العلـم (نـور اللـه والعقـل)، وسـاد التوهّـمُ بـأن «الحـال مـن المُحـال». هنـا يـبرز المُدَّعُـون «فقهـاءُ المحـال» كمزوّريـن أو ملفّقـين لمفاهيـم الأطـوار ولفلسـفة التطـور، يدّعـون أن «الأحـوال متطابقـة» وينبغـي تكرارهـا، إذْ هـي بنظرهـم المُعتـم «أطـوار متسـاوقة»، «متوازيـة» بـلا قطـع معـرفي. وهـذا مـن ثقافـة الظـلام أو الجهـل، وليـس مـن ثقافـة النـور (اللـه نـور العـالم)[3]، أو العلـم المبـين، المقـوّي للإيمـان وقيمـه.

والحال، ما هي فلسفة الأطوار؟ وهل هناك مفهوم إسلامي خاص للتطوّر؟

ينبّـه القـرآن إلى أن اللـه يخاطـبُ عقـل الإنسـان وهـو مضغـة في رحـم، وأنـه يرّكبـه في أي صـورة شـاء ـ وهـذه بنظـر هـنري كوربـان صـورة داخليـة(Imaginal) وليسـت صـورة خارجيـة (Imaginaire)، كـما في تخيـل ملاكـين عـلى كتفـي طفـل أو سـواه[4]، وعندنـا أن الصـورة (Imago) هـي بُنيـة مقدمـة عـلى هيئـة ظاهـرة خفيـة (منزلـة، درجـة، رتبـة أو مرتبـة...)، وأن منهـا معنـى الصـيرورة (Devenir) أي التحـول مـن صـورة إلى صـورة أخـرى، أي مـن عـصر إلى آخـر ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ العـصر: ١ ـ ٢.

بمعنـى مـا أنـه يخـسر إذا انحجـب بعقلـه عـن تحـولات عـصره، وهـرب منهـا هنالـك حيـث ينبغـي عليـه أن يواجـه تحدياتهـا ـ وإلا «فالويـل لمـن صـار غـدُه مثـل أمسـه»، طالمـا أن «أجمـل التاريـخ مـا كان غـداً»[5] وكانـت تقـوده «نخبـة الغـد».

---

[1]ـ خليل، العقل في الإسلام، بيروت، دار الطليعة، 1993، ط2، 2010، انظر، خليل، عقل العلم وعقل الوهم، ن.ن. 2015.

[2] ـ L'Impensable، l'Absurde ou le Politique

[3]ـ البابـا بنديكتـوس السـادس عـشر، نـورُ العـالم، بـيروت، دار الفـارابي، 2013، (العقـل هـو مسـيح كل الأمـم، عنـد الموّحديـن الـدروز، رسـال الحكمـة).

[4]ـ هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، تقديم موسى الصدر، تعريب، نصير مروّة؛ بيروت، دار عويدات، 1965.

[5]ـ سعيد عقل، شعرُه والنثر، 7 مجلدات، بيروت، نوبليس، 1992.

قرآنيّاً، الله هو الصّوّار، المُصوِّر، الخالق، البارئ، الفاطر..(24/59). ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (6/3) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ (11/7) و﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (64/3؛ 64/40 و8/82). يبقى أن نشدِّد على أن الصَّوَّار هو الذي يُجيب إذا دُعي. وهذا من الإيمان، لا من العلم السحري أو التقني.

تطوّريّاً، الإنسان هو المُصوَّر في بَدَنٍ، جسد أو جسم، ولكنه مُصوَّر على أطوار، أبرزها:

I ـ طور الحَيْوَنة:

الحياوة (Biologie) بمعنى أنه خالَ نفسَه جسداً آكلاً، حيواناً ـ حيّاً (Vivant)، يتماهى بما يأكل، ويتخوف مما يقتله أو يأكله، بدوره، من حيوان مُفترس (Prédateur). فهو «حيّ» ولكنه ليس، بعد، «ابن يقظان» في وعيه، أي أنه لم يعِ نفساً، روحاً، عقلاً مدبِّراً لجسده، كما سيحدث له في طور لاحق، حسب جدلية الأكوار والأدوار (Cycles et Ryhmes) والطوطميَّات.

II ـ طور الروحنة:

روحانية الجسد أو المادة، حين اكتشف الإنسان ان لجسده نفساً / روحاً / عقلاً يقوده، كأنه «النار» الخفية أو الطاقة التي تقود كل شيء (هيراقليطس، مأثورات Fragments)، ولكن بمقاربة قوامها أن الحيوان أو الكائن الناطق (Parlêtre) يموت بجسده ويحيا (بلا موت) بنفسه، فصار يقال إن الانسان جسد وروح (أو نفس، أو ذات، أو عقل Logos)، منه نشأ العلاج بالقول أو الكلمة (Logothérapie)، فتماهى الانسان بصورتين متعاكستين: صورة الله (فيه) على ما يشبه الألهنة (Divinisation)، أو صورة الشيطان (المنعكسة عليه من عتمة لا وعيه)، على ما يشبه الشيطنة (Diabolisation)ـ ألهنة الذات أو الغير، وشيطنة الغير أو الذات. المفيد أنه في هذا الطور المستمر جرى اكتشاف الموت نقيضاً للحياة؛ وفيه ظهرت ديانات البقاء، ومنها ديانات الخلاص (من الموت) والتوحيد وختامها الإسلام القرآني، أي حدُّها الميتاتاريخي في تطور التاريخ الإنساني (الطوطمية، الأرواحية، اليهودية، النصرانية، الإسلام، را. يوسف شلحت، بنى المقدس عند العرب،

تعريبنا). لاحقاً، سيرمز صدر المتألهين[1] إلى «ذبح الموت»، تأويلا لأمر الله بافتداء إسماعيل (سامع الله) «بكبش عظيم»، ولكن في القيامة، سيأمر الله بـ «ذبح الموت» كفكرة، افتداء للجنس المخلوق (هنا جنس في تأويلنا ينطوي على مجازين الجنّ والإنس، أي الكائن الخفي والمتجسد معاً. المفيد أكثر هو اكتشاف الانسان لتلازم جسده وروحه وماعونه معاً.

III ـ طور الماعون

* يُنبه القرآن (سورة الماعون) إلى ضرورات الحياة (Les Choses Nécessaires)، أي كل ما يعين الإنسان، جسداً وروحاً، على البقاء حيّاً، فوّاراً، متألقاً في دنياه. والماعون، بتأويلنا، يعادل مفهوم تقنة (Techmé) في الحكمة اليونانية؛ ولكنْ لم يطوِّر المسلمون هذا اللفظ إلى «ماعونية» أو تكنولوجيا ـ على ما نعلم؛ بل ذهب بعضهم إلى تزوير معنى الآلة المستعان بها (Mécanique) واعتبارها من فنون الحِيل أو السحر، فآثروا سِحْر الألفاظ على ضرورة الآلات، واعتبروا «علم الكلام» فوق علم المكْزَمان[2] مُغَلِّبين «معاملة الأديان» اللفظية على «معاملة الأبدان» الماعونية. وهكذا، جرى أخذ عقل الدين إلى السحر اللفظي، فيما هو مدعوٌّ، قرآنياً، إلى عقل العلم الماعوني أو التقني. وهكذا، أيضاً، اختصروا الإنسان إلى جسد وروح (مع أنه لا جسد بلا روح أو عقل مدبِّر، ولا روح مدبِّراً بلا جسد يأكل ويلبس ويستعين بآلات عصره)، إلى أن أعلن مونتاني[3] أن الإنسان، الكائن الحيواني، هو «جسد ونفْس ولباس»، ورأى أن على الإنسان أن يمارس «فن الحياة» بحكمة حصيفة مستوحاة من الفطرة والتسامح.

VI ـ طور الأنسنة

* في الأطوار السابقة بدا الإنسان وحشاً آكلاً، قاتلاً (Homicide)، عارياً (را. كلود ليفي ـ ستروس (L'Homme Nu، Paris، Plon 1970)، لابساً، وماهراً (HomoHabilis). وهذه الأطوار السابقة لطور الروحنة، ثم الأنسنة، تساوقت عند بعض الشعوب، وتعاقبت عند شعوب أخرى ـ كان المسلمون منها لمرحلة، ثم التبس عليهم مجرى التطور (التكوير)

---

[1]ـ السجّادي، جعفر: قاموس المصطلحات الفلسفية عند صدر المتألهين؛ بيروت، دار المعارف الحكمية، 2006.

[2]ـ يُقال خطأ «زمكان»، مع أن أمر المكان (كُنْ) سابق لحركة الزمان ولو بمليونيم او ملياريم من الثانية الضوئية(أو الإلهية)، وأن أمر الإنسان هو من إمكانات المكزمان، فتأملوا. كما يقال خطأً «أهل الحل والعقد»، مع أن العقد سابق للحل؛ ناهيك عن خلافات «فقهاء المحال» حول طور العقد وطور الحلّ، في مغامراتهم الفاشلة لإلغاء «العقل في الإسلام».

[3] MONTAIGNE، Essais، 15331592ـ.

القرآني، وخلطوا مشاهد الآخرة بمشهد دنياهم (را. ابن ميمون، دلالة الحائرين، بيروت، دار الجمل، 2012) و(قارنْ تفسيره (Zohaî) بمفهوم الهداية إلى الصراط المستقيم). وإنما في هذا الطور من ألهنة القيم الإنسانية نزل القرآن للفصلِ بين التوحيد أو الإخلاص لله وبين الشرك، وذلك بتأسيس «دين جديد» يشكّل ثورةً في عالم الإنسانية القديمة. فصارت أفعال الإنسان تُعزى إلى تدبير عقله ولكن بأمرٍ حاضر ودائم من ربه. وكان ماعون العصْرِ في مكة والمدينة وفي محيطاتهما يقوم عَلى الاستعانة بالحيوان / الآلة الناقلة والغاذيَة معاً / وببعض الأدوات الحربية (السيف، الرمح، القوس والسهم الخ) والزراعية، الرعوية... الحاصل أنَّ الشعوب التي تملك وسائل نقل أسرع (الخيل والإبل) ووسائل قتال أفعل مع عديد من المقاتلين، ستكون هي الأقدر على ممارسة الغزو أو الفتح، وتالياً الأقوى على تجميع الثروات أو الأموال (الغنائم أو الأنفال، ثم الصدقات والزكوات أو الضرائب)، لتكوين اقتصاد ريعي و «جنين دولة» في مدينة رسول الله. وبما أن التلابس مستمر بين قيم الله وخلقه وقيم الإنسان وماعونه، فإنه الإنسان نفسه أشكل على الإنسان، حتى تكونت «كبكوبة عُقَد» في لاوعي الجماعات، وقام وعيُ الوحي النبوي (والإمامي) بمحاولات كدْحِيّة «علمية» تعليمية، لفكِّها بتشريعات مستفادة من أدب القرآن والرسول (مدينة العلم) وبابها (عليّ) كما جاء في حديث. وبالعودة إلى «جدلية القرآن» (1973) ألاحظ مجَّدداً أن القرآن حاول عقلنة الإنسان بأنسنة سلوكه، المعزوّ لأمر إلهي، ورأيت أن أسلمة السلوك الإنساني تقوم على قُطبين، الله والإنسان، بمعنى أن إبليس أو الشيطان ليس شخصاً مركزيّاً مقابل الإنسان المسلم / المؤمن (أي الذي يعقل إسلامه بوعي وفهم)، وبمعنى ان عالم الغيب هو فوق علم الإنسان ـ وإن كدحَ إلى ربّه كدحاً للقائه، فيما عالم الطبيعة أو الشهادة (عالم الأبدان) هو في متناول الباحثين عن الحقائق التاريخية، فيما الحقائق الاعتقادية، الميتاتاريخية هي حقائق ميتاعقلية أو ميتاعلمية. هذا الفصل، في طور الأنسنة، أسّس للفصل بين علم الله وعلم الإنسان، ولا واصل بينهما إلا بوحي. ولكن في تاريخية المسلمين، جرى الخلط بين العادات والعبادات، بين المهجة (Habitus) والبهجة (lexus)، فكانت تشابكات بين ألهنة القيم وأنسنتها، وكانت اندهاشات عند معظم المسلمين، ما زالت تَترْى حتى عصرنا.

V ـ طور المكننة

نقصد بالمكننة تحويل التقنية الماعونية التقليدية إلى صناعة آلية، إلى نظام آلي، جعل شعوب العالم، منذ القرن الثامن عشر، تنشرخ حضاريّاً إلى شعوب بلا آلات متقنة (HD) وشعوب ذوات آلات متقنة، بحيث إن الإنسان العالِم /العالم (HSS) الذي ظهر منذ مليوني سنة، ككائن أعلى يجدد حياته ويمدّدها بعلم تقني محدود. الواقع أن الغزو التقني للعالم بدأ منذ 1492 ـ تاريخ غزو أوروبا لأميركا وطرد آخر عربي مسلم أو يهودي أو نصراني من غرناطة ـ وأنه اتخذ أشكال استعمار تقليدي، استيطاني وامبراطوري في كل حال، خصوصاً في آسيا وأفريقيا حيث عالم المسلمين أو المدار الحضاري العربي ـ الإسلامي[1].

إن المكننة مكنّت بلداناً أوروبية صغيرة أو صُغرى (البرتغال هولندا) إلى جانب بلدان أمبراطوريّة كبرى (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا...) من الهيمنة بالعلم التقني على ساحات هائلة من بلدان شعوب بلا آلات حديثة، وإن عالم المسلمين كان في ظل العثمانيين عُرضة لأخطار طور المكننة أو «الثورة العلمية» في الغرب (أو المغارب)، وغزواتها لأجزاء من أمبراطورية «الرجل المريض» (مصر، الجزائر، تونس، المغرب، فلسطين، لبنان، سورية، العراق، الخليج، السودان الخ)[2]. وبعد وفاة «الرجل المريض» هذا، صار عالم العرب والمسلمين ضحية كبرى للمكننة، بقدر ما باتتْ أنسنةُ قيمه وروحنة أخلاقياته (عاداته وعباداته) أو أسلمة حضارته وثقافاته. أما سؤال عصرنا: «لماذا تأخر المسلمون وتقدم الأوروبيون؟» فلا يزال حتى اليوم في مهبِّ الكدْح العلمي؛ وهنا مساهمة متواضعة في الإجابة الفلسفية العلمية.

٣ـ الأيديولوجيا والتكنولوجيا: تلازم التدبير وتساوق الأطوار

أ) قراءتان وأصلان

I ـ قرأ **المسلمون** عموماً ما حدث في الغرب من «**ثورة حداثية**» امتدت منذ 1750 حتى 1970، على أنه مرحلة استعمارية ـ وهو كذلك ـ لكنه كان أكثر من ذلك، بنظر

---

[1]ـ رولان برتون، جغرافيا الحضارات؛ وجاك ريسلر، الحضارة العربية (والإسلام الحديث)، تعريبنا، بيروت، دار عويدات 2000.

[2]ـ Henry LAURENS، L'Orient arabe، Arabisme et islamique de 1798 à 1945. Paris، Armaud Colin، 2002 ـ المشرق العربي، تعريبنا (مخطوط، 2013).

صانعيه ومُروِّجيه. فكان على المسلمين أن يقاوموا ذلك الاستعمار بما لديهم من أيديولوجيا الهوية العظمى (Mégaidentité)، وتحديدا بالإسلام ولغاتهم القومية، مقابل ما لديه من تكنولوجيات الامبراطوريات الكبرى. وهكذا، وُضِعت الأيديولوجيا مقابل التكنولوجيا، بقدر ما رفض المسلمون ما ادّعاه ابن خلدون(المقدمة) من «تماهي المغلوب مع الغالب»، فجعلوا عيونهم في مواجهة «**المخارز**» ومانعوا وقاوموا وقدموا ملايين القتلى/ الشهداء. رأى المسلمون أن ذلك «الغرب» المستكبر هو «حرب على الإسلام» ـ خلافاً لما ادعاه أوليفيه كاري في كتابه «**الإسلام حرب على الغرب**»[1] ـ وأن حفظ الإسلام (حفظ الدين) هو واجب ديني مقدس، فوق حفظ الأبدان أو الأوطان، فقدموا مهجة البقاء الهويتي، الموروثة من طور الألهنة، على متعة «العيش ولو تحت حافر حمار»ـ كما جاء في ثقافة الحال العربية ـ الموروثة من طور الحيونة. إلا أن ما حدث، هو ان الغرب (أو المغارب، مقابل الشرق أو المشارق، قرآنيّاً) دأب على اعتماد «الهيمنة على العالم بعلم»، وهو يخال أنه يُعَصْرِن أو يُحَدْثِن مدارات حضارية أخرى، يسودها مبدأ «الهيمنة على العالم بوهم أي بأيديولوجيا»، مراهنا على غلبة التكنولوجيا في أرض الإسلام (تجربة «إسرائيل» في فلسطين، كدولة نووية، متفوقة تكنولوجيّاً على محيطها المسلح بالأيديولوجيا الإسلامية المُمانعة والمقاومة). وبطبيعة الحال، مازالت الرهانات الكبرى مفتوحةً، وانتصارات المتغالبين في الأفق الأعلى».

II ـ بعد 1970، وعولمة «الامبراطورية الأميركية»، قرأ المسلمون ما بعد الحداثة (ما فوق الحداثة، بتعريب محمد أركون، فيلسوف التفكيك الإسلامي (باريس 1928ـ2010) بتأويل ميتاعقلي: modernisme_modernisme= Méta ـ Post) بمنظار ما بعد الاستعمار؛ لكنهم رأوا بعين الواقع كيف ينطوي هذا الطور من عولمة الاستثمار (أو التجارة الحرّة) على الشكل الجديد للاستعمار التقني، التكنولوجي(مع ظهور نظرية الإنسان الكوانتي في الفيزياء، المقرونة بسؤال إيديولوجي خطير على الهوية الدينية: «هل للإنسان نَفْس؟» المتهدِّد مداورةً لروح الإسلام، ومباشرة لأرض المسلمين. هذه الحال، جعلت المنصف المرزوقي يميز الاستعمار الخارجي (الاحتلال) من الاستعمار الداخلي (احتلال الروح)[2]، أو ما عُرف بمسميات أيديولوجية أخرى: الاستعمار والاستحمار.

---

[1] ـ Olivier CARRE (et Claire BRIERE)، L'Islam، guerre à L'Occident، Paris، 1984.

[2] ـ المنصف المرزوقي، طغاة مؤجلون (Dictatures en sursis)، تعريبنا؛ بيروت، دار التوفيق، 2013.

لكن ما أصل هذا الانفراق بين الأيديولوجي والتكنولوجي؟

نخالـه مأصـولاً عـلى فرعـين، مـن أصـل واحـد (السـحر) ختـم عليـه القـرآن بخاتـم الإسـلام معلنـاً الدّيـن القيّـم، فـوق السـحر والشـعر والكهانـة، ومشـدداً عـلى الأنسـنة بالعقلنـة أو الروحنـة (أمـر اللـه وعقـل الإنسـان). فمـن ذلـك الأصـل السـحري المشـترك، انفـرق العلـمُ والوهـمُ، الديـن والخرافـة، إنمـا ذلـك «السـحر المسـتمرّ» كان عـلى طوقـين أو طاقتـين (Deux énergies، 2sources) أو مصدريـن للديـن والأخـلاق (رأ.هــ. برغسـون)؛ دعا القـرآنُ إلى إعمال أحدهـما (قـوة العقـل) والى نبـذ ثانيهـما (قـوة اللاعقـل، الخيـال أو الجنـون). مـع ذلـك، اسـتمر تشـابك السـحري والدينـي، ليـس عنـد المسـلمين فحسـب، بـل أيضـاً عنـد معظـم سـكان الكوكـب الأزرق: 10.000 جماعـة إثنيـة، 6000 لغـة، 4000 ثقافـة (را. Larousse،2014). يشـكل المسـلمون اليـوم أقـل مـن ربـع سـكان العـالم، لكـن عـلى مسـاحات هائلـة، وبـدول تعـادل ثلـث دول الأمـم المتحـدة. وهـم بذلـك مـشروع لأكـبر امبراطوريـة محتملـة في عصـور مقبلـة، وهـي مؤجلـة طالمـا أن الأيديولوجيـات المسـلمة (نعنـي عقائـد المسـلمين التاريخيـة، السياسـية) لا تتحصـن في إيديولوجيـة إسـلامية (قرآنيـة) موحـدة، مـا جعلهـا «حصـنَ أصـداء» لتغالـب التكنولوجيـا والأيديولوجيـا في مـسرح العولمـة، بـكل قُـواه ودُمـاه. يفتقـر عـالم المسـلمين إلى الصـوت الموحـد، «الصـوت الخـلاق الـذي يوقـظ العـالم» ـ كـما خاله الشـاعر الألمـاني هولدرلـين (1770ـ 1843) وهـو يرقـى بالمقـدس نحـو الغنائيـة الرومانسـية.

المؤسـف هـو أن القفـا الأيديولوجـي للسـحر طغـى عنـد معظـم المسـلمين عـلى وجهـه التكنولوجـي، فأعملـوا عقولهم في مجالات الإيهام السـحري أو الاسـتبهام الميتاتاريخـي، وأهملوا ـ بـل أسـقط بعضُهـم ـ تدبـير العقـل، حتـى خالـوا «دينهـم» سـحراً، وتداولـوه بسـذاجة كعملـة زائفـة، بوعـي زائـف، متغـرب عـن أصلـه العقـلي، ومسـتغرب مـما يحـدث حولـه مـن ثـورات علميـة ـ تكنولوجيـة، فـلا يحظـى منها إلا بأصـداء يحاكيهـا، بعدمـا كان «الطائر المحـكي» في دينه وحضـوره الحضـاري، ولـو شـعراً (المتنبـي، مثـلاً). فهـل جاءهـم «صـوت خـلاّق» مـن الـشرق (إيـران) كـما توقـع كـمال جنبـلاط «تسـمعون خفـق النعـال آتيـا مـن الـشرق»[1]، واكتشـفه ميشـيل فوكـو[2] حـين زار إيـران وأدرك لغـز «ثورتهـا الخفيـة» التـي حولـت قـوة الجماهـير الايديولوجيـة، إلى طاقـة ثوريـة، ستسـعى إلى صـون الايديولوجيـا أو الهويـة الكـبرى بالتكنولوجيـا؟

---

[1]ـ خليل،مع كمال جنبلاط، بيروت، المركز الثقافي العربي،2012 [ورا. ثورة الأمير الحديث 1984].
[2]ـ الذواوي باغوره، فلسفة ميشيل فوكو/وتعريب، تأويل الذات/ بيروت، دار الطليعة، 2014.

ـ لـئن جـاء القـرآن الهابـط، وحيـاً، مـن الأعـلى إلى الأدنى، فاصـلاً الإيمـان عـن السـحر عنـد بعـض الشـعوب، فـإن العلـم الوحيـاني سـيكون بمثابـة «قـرآن صاعـد» مـن اختبـار العقـل للموجـودات والكائنـات عـلى مـدى تحولاتهـا وأطوارهـا، ومنفصـل بـدوره عـن السـحر اللفظـي، أو الوعـي الزائـف، فمُركِّـز أكـثر فأكـثر عـلى تقنيـات السـحر الماديـة، إلى أن حصـل سـحر التكنولوجيـا، تـارة خادمـاً للإيمـان (الكنيسـة والعلـوم الحديثـة) وتـارة مسـتقلاً عـن كل ديـن أو إيمـان، محايـداً، صالحـاً لـكل الاسـتعمالات (الدينيـة وغـير الدينية،وحتـى المعاديـة للأديـان). فـماذا حصـل في المـدار الحضـاري العـربي ـ الإسـلامي؟

ب) تلازم التدبير وتساوق الأطوار

مـا حصـل هـو أن الفتـح القـرآني كان فتحـاً عقليّـاً، معـزَّزاً بفتوحـات إلهية/إنسـانية، إيمانيـة/عقلانيـة، هدفهـا الأخـير إعـلام النـاس كافـة بـأن إلهَهـم واحـد، وتاليـاً، أن عقلهـم المدبِّـر لا بـد لـه مـن أن يتوحـد حـول فكـرة مركزيـة كـبرى ومطلقـة: تأسـيس ديـن. فتوسـلوا مـا توافـر لهـم مـن ماعـون عصرهـم (حيوانـات مدجّنـة، أدوات وآلات معيشـة وقتـال)، وبذلـك اقـترن جـواد العقـل الإسـلامي بجـواد العقـل الماعـوني (التقنـي) وأنتـج اقترانُهـما تدبـيراً تطوريّـاً، متلازمـاً مـع تسـاوق الأطـوار. للمثـال، سـنذكر هنـا روايـة جـاك ريسـلر، الأكاديمـي السـويسري (الحائـز عـلى جائـزة الأكاديميـة الفرنسـية) عـن تدبـير الفتـح: «حـين وصـل فاتحـون مسـلمون إلى مشـارف سـمرقند، وعسـكروا خارجهـا كعادتهـم، خـرج إليهـم أعيـان سـمرقند، عارضـين عليهـم مـا كان يسـحرهم مـن زخـارف ذلـك العـصر ـ أمـوال، جواهـر، نسـاء، وغـلال أخـرى ـ فـما كان مـن قائـد الحملـة إلا أن طلـب منهـم تزويـده بكميـات مـن الـورق السـمرقندي المشـهور، لإرسـاله إلى علـماء الإسـلام في حواضرهـم. وخلـص أهـل سـمرقند إلى أنهـم يواجهـون، هنـاك وآنـذاك، فاتحـين رسـاليين، مرشـحين لحكـم العـالم بالإيمـان وبالعلـم معاً».(الحضـارة العربيـة.م.س؛ للمزيـد/ را. خليـل، الـتراث العـربي مـن الـتراب إلى ناطحـات السـحاب، بـيروت، م.ث.ف. 2011). وعليـه، قامـت حضـارة عربيـة ـ مسـلمة (أي صنعهـا مسـلمون) وإسـلامية (بقـوة الإسـلام وتدبـيره العقـلي)، وتعاقبـت أطـوار «الامبراطوريـات» عـلى إيقـاع سـلالات متغالبـة (بعـد مقتـل الإمـام عـلي، وهـو أول عقـل مدبِّـر يُغتـال في الإسـلام الخليفـي، عـلى خلفيـة فتنـة كـبرى) جعلـت مراكـزَ الحضـارة تنتقـل بموجـب تغـيّر السـلالات، لا بمقتـضى تدبـير سـياسي عقـلاني متسـاوق مـع الأطـوار: دمشـق

وغلبة الأمويين بالدم؛ بغداد (نيويورك العصر) وغلبة العباسيين بالانقلاب على أبناء عمومتهم الطالبيّين/ العلويين، وغلبة الفاطميين بالدعوة الجديدة وبالعنوة وإنشاء القاهرة بكل مرتكزاتها الدينية والعلمية (الأزهر، دار العلوم والحكمة...) إلى أن نبا سيف العقل وكبا جواد العلم، لصالح الانكسار التطوري في مساقات النُّظُم المسلمة. فهل تعب حقا جواد العقل الاسلامي، وأخذ يرتاح على «مدائن» لا عاصم لها من أدائها سوى الدِّين؟ والتكنولوجيا؟ الواقع أن استراحة العقل الاسلامي المجاهد قد طالت كثيراً، وتمادت في انحطاطاتها وانحلالاتها، حتى فقد المسلمون مفهوم التطور ذاته، وتحديداً معنى التقدم، والتبس على عقلياتهم الفرق بين التأخر والتجدد ـ إلى ان قام بينهم من دعا إلى اسقاط التدبير (ابن الصلاح الشهرزوري، الإسكندري...) مدّعيا أن «إسقاط العقل» هو «ميزان العقل» أو عينه؛ وعمت الفوضى وانتشرت حَوْكَماتُ اللاعقول أو حكومات الطغيان والاستبداد الثوريتية.

إلى ذلك، شاع وباء الجهل، العدو الاول للعلم؛ فصار يقدم التقليد، بلا تدبير تساوقي للتطور، كأنه هو التجديد بعينه، الحافظ لبيضة الإسلام بالعودة إلى أبجد الدين، أي الآباء والجدود. فكانت العاقبة حتى عصرنا: خروج أكثر المسلمين من عصرهم بقوة الجهالة والتجهيل، هناك حيث يلزم العلم والتعليم (معدل الأمية نحو 70% في عالم المسلمين الراهن)، ومحاربة المتعلمين منهم، أكانوا علماء دين أو علماء دنيا أو الإثنين معاً ـ ما جعل القرآن كتابا أو مصحفاً يُعاذ به على رفّ الذاكرة الهذائية، ولا يستفاد منه في رسالتيه: دعوة الناس إلى إله واحد، ودعوة العقول إلى الاستنارة والتنوير، بدلاً من هذا الاستغراب الطفولي. بدون هاتين الدعوتين معاً، تنكسر سلسلة التطور الحضاري، وإن تعاقبت أجيال (أكثر من 50 جيلاً منذ انتصار الإسلام المحمدي في المدينة، 630م، حتى اليوم)، وتجددت تكنولوجيات، وتغيرت معالم كوكبنا... وبدلاً من تجديد الحضارة المسلمة، حضارة المسلمين، بالثبات على الايمان التوحيدي وبالسحر أو الإبداع التكنولوجي، جرى التمديد لانحطاط التدبير، أولاً باستعارة عقول أمم متقدمة تكنولوجيّاً؛ ثانيا باستثمار عقول المسلمين في أدلجة ألفاظ (منها فتاوى الترهات، على أكثر من 700 قناة فضائية، لتحريض المسلمين على الفتنة (الهَرَج والمَرَج) بتكفيرهم لبعضهم تمهيداً لتعنيفهم واقتتالهم، أي لتدمير الإسلام من داخله)، بدلاً من اعتماد المكننة كوسيلة فعالة للتمكّن من الهيمنة على عالم المسلمين بعلومهم هم، لا بعلوم سواهم، والحال، حين

لم يعد الإبداع العقلي يجمع المسلمين المعاصرين، أخذ الاستتباع التكنولوجي يفرّقهم، متأسراً «عقولهم» كبراكين مطفأة، مستلحقاً بلدانهم ومواردهم وثرواتهم بالعقل العلمي المعولم غرباً (هنا روسيا، الصين، اليابان... غرب أيضاً). فما حيلة «عقل أسير»، «مستقيل» من الإعمال التطوري، أمام عقلٍ حرٍّ، سيّدٍ في مجاله وعالمه؟

ج) «الثورة الخفّية»

بالعودة إلى أطروحة كوفيل عن «الثورة الخفية» نستغرب كيف أن مسارات الثورة الإيرانية لم تُقرأ عند المسلمين العلماء وكأنها ثورة في ثورة الإسلام (العقلي) والمسلمين المعاصرين (المُستعَمرين من الداخل والخارج معاً)، بل قُرِئَت في استيهام الأيديولوجيات الغربية، الاستعمارية الاستثمارية بلا هوادة، وعُكِست في مرايا الإعلام السياسي العربي أو المسلم، كما لو أنها «ثورة مذهبية» (شيعية) مضادة للسنية المهيمنة على المشهد الآفرو ـ آسيوي لعوالم المسلمين المستلحقة بأكابر المستكبرين الامبراطوريين (الإمبرياليين، في المصطلح الماركسي ـ اللينيني)، وفوق ذلك، صنفت أيديولوجيّاً على أنها «فارسية» معادية للعروبة أو الجامعة العربية (Panarabisme)، فكانت حرب الغرب (صدام وحكام الخليج، بتأييد من أميركا وإسرائيل) على الثورة الخفية، مقترنة بحرب تكفيرية، تدّعي أن المسلمين الشيعة يشكلون «ديانة مستقلة» (را.هـ. جعيط، الفتنة، م.س.، وم.ع. الجابري، تكوين العقل العربي، أعمال، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، وهفوة «العقل المستقيل»)، وأن عقلهم مأسور، مقال أومستقيل من صنع التاريخي... وعندنا أن هذا الإرهاب الإعلامي المؤدلج بفتاوى وكاريكاتورات وافتراءات هو الذي أسس لهذه «الحروب التي تخاض باسم «اللاعقل: ضد العقل في الإسلام، ضد اقتران الإيمان بالعلم، وترابط الأيديولوجيا الدينية بالتكنولوجيا المستقلة. في ثورتها الخفية، كما في «الحروب» المفروضة على إيران، أدركت الجمهورية الإسلامية أهمية إرصان العقيدة وتحصينها بعلوم العصر. فثّمرت في محيطها، كما في داخلها، وحددت «أميركا وإسرائيل»: كعدوّين محرِّكين للصراع على الشرق الأوسط، وعملت على عقلنة السياسة، رغم مخاطر الرهانات على مستقبل المسلمين المنشطرين بين ضفتي الإسلام (السنة والشيعة) وغير المتنبهين إلى أن «نهر الدم» المراق على الأيديولوجيات السحرية السياسية، المستقلة بوهم فتاوى تُرَّهية (را. خليل، جدليات الفتاوى والسلطة، بيروت، دار الطليعة، 2014).

إن الجمهورية الإسلامية، المقامة على تدبير العقل وتساوق الأطوار، هي المستهدفة، المهدوفة عن أقواس الحروب الراهنة ونشّاباتها (أفغانستان، العراق، سورية، اليمن، الصومال، ليبيا... بعيدا من المستعمرة النووية «الإسرائيلية» المقامة غربيّاً في فلسطين) وليست التسمية هي المستهدفة (فجمهورية موريتانيا الإسلامية، مثلاً، لا تدخل في حُسبان الصراع التطوري؛ ومشروع تسمية اتحاد ليبيا وتونس (جمهورية إسلامية)، أيام بورقيبة والقذافي، ليس هو الذي أجهض الوحدة هناك). ما حدث منذ 1979 في إيران حتى اليوم، هو التخويف الأيديولوجي من تكنولوجيا الثورة العلميّة المسلمة، واعتبار طهران، هذه الهضبة الحضارية التي أسهمت مع العرب وسواهم في تكوين الحضارة المسلمة، بمثابة النواة المركزية الصلبة لقيام امبراطورية إسلامية متجددة، قوة عظمى لهوية عليا، ببنية عملاقة، لا مذهبية، لا سنية ولا شيعية، لا غربية ولا شرقية، مستقلة بقدر ما هي مستقيلة أو متحررة من الأسر الدوغماتيكي في الداخل، ومن الأسر التكنولوجي في الخارج. إن إنصاف ثورة العقل الجمهوري لن يأتي، إذن، من خارج الصراع التاريخي، مهما حاول اللاعقل الميتاتاريخي توشيم الواقع بأوشام تُرَّهيّة لا تَثبت أمام ثورة إيران التكنولوجية،التي كسبت حتى الآن حقها في البقاء كقوة نواتية (نووي) لثورات شعوب المسلمين على ما يفرض فوقهم من حكام طغاة ـ يعطلون ويؤجلون بالأموال مسارات التطور التي لا ترد في آخر المآل. هنا نلفت إلى أن ثورات الأمم الكبرى، كالأمم المسلمة (ومنها العربية والإيرانية والتركيّة...) تستغرق عقودا، بل قروناً، وكي تكمل دورات «ثورتها الخفية» ـ الإيمان مع العلم التكنولوجي، أو ثبات القرآن ومتغيرات المكزمان.

٤ـ قوة التطور الخلاّق

تشي خرافة «الفوضى الخلاّقة» بما يستبطن عقلُ الغرب التكنولوجي من مشاريع لتدمير نُوى التقدم لدى أمم ـ منها الأمم المسلمة أو الأمة الاسلامية ـ كانت حتى عهد قريب خارج المدار الحضاري العلمي ـ التقني، أي أنها كانت تحفظ أنسنتها وقيمها بقوة الوهم، لا بقوة العلم (انظر، خليل، عقل العلم وعقل الوهم، بيروت، دار الطليعة 2015، تحت الطبع)، فإذا بثورة جيل مسلم تنهض من الخفاء إلى العلن، وتشهر سلاح التقدم بقوة الإيمان والعلم التقني والإنساني معاً.

أ) تعاقب الأجيال

* كان ابـن خلـدون (المقدمـة) في القـرن الرابـع عـشر الميـلادي قـد أثـار مـن زاويـة (العمـران) مسـائل تعاقـب الأجيـال، ولكنـه لم يعقـب عـلى بـداوات عـصره، وتاليـاً لم يكتشـفْ مـا أسـميناه البدوقراطيـة (را. خليل،لمـاذا يخـاف العـرب الحداثـة؟ م.س) فاكتفـى بتقديـم جيـليٌ للتعاقـب (انظـر، سـيار الجميـل، المُجايلـة، بـيروت، المؤسسـة العربيـة، 1998): جيـل يبنـي، جيـل يـرث، وجيـل يهـدم مـا ورث. وعندنـا أن هـذا التقويـم قـد ينطبـق عـلى المـدار البـدوي للتطـور العـربي، فيـما كان تعاقـب الأجيـال عـلى ضفـاف أوروبـا المتوسـطية الجنوبيـة ينـم عـن تقـدّمٍ مـا في مسـارات التطـور (مولـد الفـرد، حريـة العقـل حوجيتو: أنـا أفكـر- وفيديو: أنـا أرى؛ تصنيـع العلـوم وتراكـم النهضـات، عـلى ايقـاع حـروب اسـتعمراية هائلـة). لم يختلـف ابـنُ خلـدون عـن سـابقيه ممـن فقـدوا مفهـوم التقـدم وتقلـدوا المحافظـة عـلى التقليـد» بـلا تجديـد أو نقـد. فالأطـوار، كـما الأجيـال، تحـدث، بامتـدادات وانقطاعـات، بتعاقـب قطعـي أو بتسـاوق وتراكـب (juxtaposition). حتـى إن ابـن خلـدون خـال ان الرياسـتين الدينيـة والعلمية لا تجتمعـان لأحـد عنـد العـرب (بوهـم عـدم اجتـماع سـيفين في غمـد واحـد أو ذكريـن عـلى أنثـى، هكـذا!) وفاتـه الأنمـوذج المحمـدي في المدينـة (تأسـيس ديـن وجنـين دولـة معـاً)، فلـم يلتفـت إلى مـا نسـميه هنـا «انقـلاب السـقيفة» باسـتبعاد عـلي، المرشـح لمتابعـة أنمـوذج أخيـه وابـن عمـه ومثالـه؛ ولم يقـرأ في مشـهد «يـوم الـدم» معنـى رأس الحسـين مقابـل رأس السـلطة... فـرأى أن معاويـة فقـط، هـو الـذي قلـب الخلافـة مُلْـكاً...

ما الجديد في خفاء الثورة الجمهورية المسلمة؟

* هـو أن تعاقـب الأجيـال الـذي أجّـل وأحبـط تحقـق الأنمـوذج المحمـدي /العلـوي أو الصراطـي (عنـد الامـام الصـادق الـذي دعـا الآبـاء إلى فـك أبنائهـم مـن أسر أبوتهـم، وحـذر مـن أن يكـون غـد الأبنـاء مثـل أس الآبـاء والاكتفـاء بتقليـدٍ بـلا تجديـد. را. عـلي زيعـور، الإمـام الصـادق، بـيروت، منشـورات عـز الديـن: 1992).

* هـو أن الأجيـال المتعاقبـة، تاليهـا أفضـل مـن سـابقها، وأنهـا أجـدى مـن أجيـالٍ أولى، في تلبيـة دعـوة أوامـر «شـديد القـوى» الـذي علـم محمـداً كيـف يقـوي الإسـلام عـلى مناوئيـه، بقـوة تكاثـر المسـلمين وانتشـارهم في الأرض (جماهـير مليونيـة أو ملياردريـة في عـصر الثـورة المسـلمة بتدبـير العقـول الدينية/العلميـة معـاً).

* هو أن التقدم ممكن في تسلسل الأطوار المتراكبة، المتوازية والمتقاطعة أيضاً.

ب) التطور الخلاّق

ـ يُعزى مصطلح التطور الخلاّق إلى هنري برغسون (باريس 1859ـ1941)، الفيلسوف الفرنسي اليهودي، الذي رفض اعتناق المسيحية وسواها، حتى لا يُقال: إنه تخلى عن أقلية مُضطَهدة في أوروبا لصالح أكثرية مهيمنة مع أنه بدا في أعماله الفلسفية، لا سيما كتابه «مصدرا الدين والأخلاق» مسيحيّاً أكثر منه يهوديّاً. وفي قراءتنا لهذا المفهوم من خلال «ثورة العقل المسلم» الخفية، نرى أن التطور الخلاّق في حكمة الخميني تجلى في الثبات على موقف قرآني صراطي وحيوي، قوامه «تهافت» أربعة عشر قرناً من البناء الامبراطوري الزائف، وابتناء أمبراطورية إسلامية، مؤجلة منذ السقيفة وصفين وكربلاء حتى عهد الشاه. هذا الفهم الجديد للتطور الخلاّق من أنه سد الطريق على مشاريع أميركا وإسرائيل في هذه المنطقة الحيوية جدّاً من العالم. وهذا بالتحديد ما جعلها ثورةً هادفة ومهدوفة في آن.

والحال/ ما هي وجهة مسارات تطورها اليوم، وغداً؟

ـ اليوم، ما بعد الاستعمار أو ما بعد الحداثة يجعل مسلمي «الأنظمة القلِقة» يغرقون في مستنقعات «حروب أهلية» لا بد من انتهائها بتسويات كبرى، كما هي حال ظاهرة الحرب في التاريخ؛ فيما مسلمو «الأنظمة القارة» نسبياً (الخليج، إيران، تركيا) يراهنون على تسويات أولى مع الغرب (5+1)، وقد تليها تسويات إقليمية ومحلية، لكن «بعد خراب المنطقة» وليس البصرة فقط، كما كان يُقال.

ـ وحدها البلدان المسلمة التي تقرن الايديولوجيا بالتكنولوجيا ستتمكنُ إذن من استدخال عقل العلم في السياسة، في انتظار «ثورة علمية» مصنوعة محليّاً، مستقلة في مصادرها وأهدافها الكبرى: التقدم مع التطور، فك الاشتباك بين الأطوار والأجيال، والانتقال من الاقتصاد الريعي (الإمارة تجارة) إلى الاقتصاد التكنولوجي (التدبير ماعون أو تقنيات).

ما يحدث في الشرق الأوسط من تدمير لبنى الحكم البدوقراطي، قد يستمر عوداً،

ولكنه سيضع المسلمين في أفق البحث عن أنموذج سياسي مركب من الفدرالية المركزية والديموقراطية الشاملة (اقتصادية، اجتماعية، علمية وسياسية). وهنا دور خاص للنُخب العلمية الملتزمة التي تواكبُ تحولات الأمة المسلمة، في منعرجاتها ما فوق المذهبية، الطائفية، بعد انقلاب البنى البدوقراطية إلى بُنى بروتوديموقراطية، تمهيداً لقيام بنى ديموقراطية تقطع مع أطوار ما قبل الأنسنة، بعقلنة جديدة في تقنياتها ووسائل تداول السلطة داخل الجماعات المَعنيّة بالتغيّر[1].

أمبراطورية العقل: اختلال أم خطأ؟

* ليس لنا أن نحدد، منذ الآن، مآلات الحروب المندلعة «حرائق» في مكونات الأمم المسلمة، فهذا من شأن الايديولوجيا التي لا ترى اتجاهات التطور إلا بعينها الصقلوبية، العُوارية (هنا العين لا تعود كاميرا تصور الواقع ولا يعود الدماغ حاسوباً يخّزن الصور/ الأفكار ويحللها، بل تبدو وكمرآة مشدخة، يُرَى فيها الأنا النرجسي، ولا يُرى الآخر، الموصوف عموماً بأنه «أعور»). فعين العقل، ميزان العلم، تجعلنا نكتفي بالتساؤل عما إذا كان ما يحدث هو «تطوّر خلاّق» أم هو تدمير فوضوي لا يخلقُ سوى الحرائق والكوارث المصطنعة،والمصنفة أيضاً ولو من بعيد.

وبعد، كم من الأجيال العربية والمسلمة سيلزم لاختراق «حصن الأعداء» والتوصل إلى ينابيع الحضارات العقلانية؟ لقد تعاقبت حروب وأجيالٌ، ولم يحدث القطع المنطقي بين أطوار ما قبل العقلنة وما بعدها. في عصره الاول، قدم الإسلام رسالته، عبر القرآن والقراء (أول حزب سياسي متشدد في الإسلام، را. هـ. جعيط، الفتنة، م.س). وأفضى التطور الصراعي على الملك إلى قيام «امبراطوريات» أموية، عباسية، فاطمية، عثمانية تركية...) خالها بعضهم «عروبية» وبعضهم الآخر «إسلامجية». وبقي السؤال: بأي عقل يُرتجى تحويل الدين إلى علم، وتحرير الفقه السياسي من السحر الأيديولوجي، وجمع المسلمين كافة في «أمبراطورية عظمى»، من ماليزيا وأندونيسيا حتى نيجيريا...؟ لقد طغى سحر الدم والقتل على عقل «البقية» والحوار.؟ وكلما انقطع الحوار بين المسلمين، تعرضت البقية للمخاطر الكبرى (للإبادة والافتراض). وان ما دار حتى الآن

[1]ـ خليل، إشكاليات الشيعية السياسية: هلال شيعي في بدر سني؛ مركز المسبار للدراسات والبحوث، الكتاب 80، أغسطس/ آب 2013، ص 41ـ59.

مـن أحـداث قاتلـة في المجـال الإسـلامي المنشـطر (أنـا سـنية، أنـت شـيعي، تقـول الكاتبـة السـعودية سـارة مطـر) وتقـول القنـوات الفضائيـة أكـثر مـن ذلـك؛ ولكـن مـا يحـدث في ميادين «القتـال» أدهـى مـن كل قـول.

والحـال، أَلاَ يلعـبُ «مسـلمون» ألعـاب التفكيـك لدولهـم الوطنيـة وفقـا لإرادة السـاحر التكنولوجـي الغـربي والاسـتغرابي، فيخالـون أنهـم «ينـصرون» أيديولوجيـا عـلى أخـرى، فيـما هـم يدمـرون امبراطوريـة العقـل «الخفـي» في الإسـلام؟

أرى ان مـا يحـدث هـو أكـثر مـن اختـلال في البنيـة العقليـة «المسـلمة». أنّـه خطـأ، عمـره أكـثر مـن 14 قرنـاً: خطـأ قلـب الإسـلام، عـلى نقيـض القـرآن، إلى سياسـة قَبَليـة، فيـما هـو أصـلاً وفصـلاً، وحيـاً وعقـلاً: ديـن. وليـس خطـاً الفصـل بـين الإسـلام والسياسـة، وتحديـداً بـين «رجـال الديـن» و«رجـال الدولـة»؛ بـل الخطـأ هـو الفصـل بـين الإسـلام والعقـل، وتقديـم إيمـان المسـلمين كأنـه «خرافـة» أو «وهـم» قابـل للتوظيـف السـياسي. أو كأن المسـلمين «تجـارة في إمـارة».

وتبقـى دعـوة القـرآن قائمـة لتجـاوز الاختـلال وتصحيـح الخطـأ، وتبقـى مغامـرات العقـل في الإسـلام ممكنـة ومثمـرة، إذا سـعى المسـلمون المسـتقبليّون إلى تحقيـق أنسـنتهم الأخـرى بقيـم عقلانيـة، علميـة، تتوسّـل المكننـة، وليـس فقـط الأدلجـة للانتقـال مـن الحكم بوهـم، إلى الحكـم والحوْكمـة عالَميّـاً بعلـم. وإن ألفبـاء «حـلّ العقـد» تبـدأ بنبـذ «عقـدة الجاهـل» الـذي يُرسِّـم نفسـه في «عقـدة العـالم». أمـا يـاءُ هـذه المغامـرة فـلا مجـال لبلوغهـا قريبـا، وبـدون تفكيـكٍ وتركيـبٍ متوازيـين ومتكاملـين لأطـوار التطـور، واعتـماد العقـل الحـرّ، المسـتقل والفعـال الخـلاّق في صمتـه وسـكينته.